

تقرير طبع الإنسان من خلال سورة المعارج دراسة موضوعية

إعداد:

د. عبد الباقي بن عبد الرحمن سيبي

الأستاذ المساعد بقسم القرآن وعلومه

كلية أصول الدين

١٤٤٣هـ - ٢٠٢٢م.

ملخص البحث

❖ موضوع البحث:

تقرير طبع الإنسان من خلال سورة المعارج دراسة موضوعية

❖ هدف البحث:

إبراز أصول الأخلاق الطبيعية في الإنسان، وبيان أخلاقه الطبيعية، والمكتسبة من حيث الذميمة، والمحمودة من خلال سورة المعارج.

مشكلة البحث:

- أولى الموضوعات الجديرة بالدراسة دراسة موضوعية من خلال سور القرآن الكريم.
- إبراز أخلاق الإنسان الفطرية، وطبائعه، وماله، وما عليه من الصفات اللائقة، وغير اللائقة.
- بيان أصل ما فطر عليه الإنسان، وما طرأ عليه من سوء تصرفه في أقواله، وأفعاله.
- بيان أهم المقاصد التي تضمنتها سورة المعارج، وطبع الإنسان وصفاته هو: محورها الأساس الذي يتسق جميع موضوعاتها.

❖ نتائج البحث:

- المتأمل في هذه السورة الكريمة، يرى أن على رأس القضايا التي اهتمت بها، الحديث عن النفس الإنسانية بصفة عامة في حال العسر واليسر، والتركيز على أصول الأخلاق، وأقسامها، طبيعية، ومكتسبة.
- أن طبيعة الإنسان، وسجيته، وخلقه تتقلب بين الخير والشرّ، والأصل في اكتساب الأخلاق، هو الملازمة والتحري، والقصد.
- أن الله جلّ وعلا خلق الإنسان، وهو يحب ما يسره، ويهرب مما يكره، ثم أمره بإنفاق ما يحب، والصبر على ما يكره، وأعطاه الإرادة تجعله قادراً على الفعل، والكفّ.
- تقرير السورة طبع الإنسان بين الأخلاق السيئة وبين الأخلاق الحسنة؛ لبيان أصل ما فطر عليه، وما طرأ عليه من سوء تصرفه في أفعاله، على أنه سرعة الجزع عند مس المكروه، وسرعة المنع عند مس الخير.

- أن هاتين الصفتين من الصفات المذمومة يجب الحذر منهما، والابتعاد عن كل الأخلاق غير اللائقة، وإرساء الأخلاق الفاضلة، والتحلي بها.
- ميّزت السورة أصحاب الأخلاق الرذيلة من أصحاب الأخلاق الفاضلة الذين يتحلّون بمكارم الأخلاق.

الحمد لله أولاً وآخراً، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

❖ الكلمات الدالة (المفتاحية)

(تقرير طبع الإنسان من خلال سورة المعارج دراسة موضوعية).

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلّل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وعلى آله وصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فإن طبع الإنسان وصفاته الإيجابية والسلبية من أهم المقاصد التي تضمنتها سورة المعارج؛ ذلك لأنها الرافد الأساس الذي يتحرى منه الإنسان صدقه وكذبه، ولاريب أن كل انحراف في الطبع منبعه من فساد خلق.

وقد أنزل الله كتابه العزيز للتدبر، والتفكر، وبين فيه طبع الإنسان الذي خلق منه وجبل عليه في مجالات منها هلوفاً، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ [المعارج: ١٩]، وعجولاً، كما قوله: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧]، وضعيفاً، كما في قوله: ﴿وَخُلِقَ

الإنسَنُ ضَعِيفًا ﴿النساء: ٢٨﴾.

وتأتي هذه الدراسة إسهاماً في إبراز توجيهات القرآن الكريم، وهداياته في مجال طبيعة الإنسان من خلال سورة المعارج؛ إذ تعتبر طبيعة الإنسان من أهمّ موضوعاتها، فكانت الدراسة بعنوان: "تقرير طبع الإنسان من خلال سورة المعارج دراسة موضوعية

أهمية الموضوع، وأسباب اختياره:

- ١- أولى الموضوعات الجديدة بالدراسة دراسة موضوعية من خلال سور القرآن الكريم.
- ٢- إبراز أخلاق الإنسان الفطرية، وطبائعه، والتي يؤخذ عليها، وما لا يؤخذ عليها من الصفات اللائقة، وغير اللائقة.
- ٣- بيان أصل ما فطر عليه الإنسان، وما طرأ عليه من سوء تصرفه في أقواله، وأفعاله.
- ٤- بيان أهم المقاصد التي تضمنتها سورة المعارج طبيعة الإنسان وصفاته، بل جبلته محوراً الأساس الذي تتسق جميع موضوعاتها فيها.

أهداف الموضوع:

- ١- تقرير أصول الأخلاق الطبيعية في الإنسان، وسجيته من خلال سورة المعارج.
- ٢- بيان أخلاق الإنسان الطبيعية، والمكتسبة من خلال سورة المعارج.
- ٣- إبراز أصول الأخلاق الذميمة، والأخلاق المحمودة التي تضمنتها سورة المعارج.

حدود البحث:

تقرير طبع الإنسان من خلال سورة المعارج دراسة موضوعية.

الدراسات السابقة:

لم أقف على بحث تناول تقرير طبع الإنسان من خلال سورة المعارج دراسة موضوعية فيما راجعت من مظانه.

خطة البحث

يتكون البحث من مقدمة، وخمسة مباحث، وخاتمة، وفهارس.

المبحث الأول: الطبع ومفهومه.

المبحث الثاني: الهلع ومفهومه.

المبحث الثالث: أخلاق طبيعية في الإنسان.

المبحث الرابع: أخلاق مكتسبة للإنسان.

المبحث الخامس: أخلاق حميدة.

المبحث السادس: أخلاق مذمومة.

الخاتمة.

المبحث الأول

الطبع ومفهومه

الطبع في اللغة: الختم. قال ابن فارس: "الطاء والباء والعين أصلٌ صحيح، وهو مثلٌ على نهايةٍ ينتهي إليها الشيء حتى يختم عندها، طَبَعُ الإنسان وسَجَّيْتُهُ (١)".

الطَّبْعُ والطَّبِيعَةُ الخَلِيقَةُ والسَّجِيَّةُ التي جُبِلَ عليها الإنسان، والطَّبَاعُ كالطَّبِيعَةِ مُؤَنَّثَةٌ.

قال الأزهري: ويجمع طَبَعُ الإنسان طِبَاعاً، وهو ما طُبِعَ عليه من طِبَاعِ الإنسان في مَأْكَلِهِ ومَشْرَبِهِ وسُهولةِ أَخْلَاقِهِ وخُزُونَتِهَا وَعُسْرِهَا وَيُسْرِهَا وشِدَّتِهِ ورَخَاوَتِهِ وَجُلِّه وسَخَائِهِ، والطَّبَاعُ واحد طِبَاعِ الإنسان.

طَبِعَ اللهُ على قلوب الكافرين، أي خَتَمَ عليها، فلا يَعِي وغطَّى ولا يُوفِّقُ لخير، وهو التَغْطِيَةُ على الشيء، والاستيثاق من أن يدخله شيء كما قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ﴾ [النحل: ١٠٨]. أي ختم على قلوبهم (٢).

ومن ذلك الحديث: « مَنْ تَرَكَ الْجُمُعَةَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ غَيْرِ عُدْرٍ، طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قَلْبِهِ » وفي لفظ « ثَلَاثَ مَرَّاتٍ تَهَاوُنًا » (٣). معناه غَطَّى على قلوبهم، وختم عليها.

والطَّبَاعُ هو ما رُكِّبَ في الإنسان من جميع الأخلاق التي يُزاولها من الخير، والشر.

(١) ينظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٣ / ٤٣٨).

(٢) ينظر: تهذيب اللغة للأزهري (٢ / ١١٠)، والنهاية في غريب الأثر (٣ / ٢٤٩)، ولسان العرب (٨ / ٢٣٢)، ومختار الصحاح (ص: ٤٠٣)، ومعجم الفروق اللغوية للعسكري (ص: ٢٣١).

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٢ / ٤٢٢)، (١٤٥٥٩)، وأبو دود في سننه (١ / ٤٠٧)، (١٠٥٤)، والترمذي في سننه وصححه (١ / ٦٣٠)، (٥٠٠)، والنسائي في سننه (٣ / ٨٨)، (١٣٦٩)، وابن ماجه، (٣٥٧/١)، (١١٢٦) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

المبحث الثاني

الهلح ومفهومه

الهلح هو شدة الحرص، وقلة الصبر، وهو أسوأ الجزع، وأفحشه (١).

قال ابن فارس: "الهاء واللام والعين: يدلُّ على سرعةٍ وحِدَّة، ومنه الهلُّعُ في الإنسان: شِبْهُ الحرِّص، وفي التنزيل: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ [المعارج: ١٩]. والهلُّوعُ الذي يَفْرَعُ وَيَجْرَعُ من الشرِّ (٢).

وقد جاء في الحديث: «شَرُّ مَا فِي رَجُلٍ شَحُّ هَالِعٍ وَجُبْنُ خَالِعٍ» (٣). أي يجزع فيه العبد ويجزن.

الهلح: هو سرعة الجزع عند مس المكروه، وسرعة المنع عند مس الخير، والمعنى أنه لا يصبر على خير، ولا شر حتى يفعل فيهما.

(١) ينظر: كتاب العين للخليل (١ / ١٠٧)، وتفسير الطبري (٢٣ / ٦١١)، والقرطبي (١٨ / ٢٩٠).

(٢) ينظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٦ / ٦٢)، وأساس البلاغة للزمخشري (٢ / ٤٩٢)، وتهذيب الأسماء واللغات للإمام النووي (٣ / ٣٥٧)، ولسان العرب (٨ / ٣٧٤)، والصحاح للجوهري (٤ / ٤٤٣).

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٣ / ٣٨٥)، (٨٠١٠)، وأبو داود في سننه (٢ / ٣٢٠)، (٢٥١٣)، والنسائي في السنن الكبرى (٩ / ١٧٠)، (١٨٣٤٢). من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

المبحث الثالث

أخلاق طبيعية في الإنسان.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ۝۸ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ۝۹ وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ۝۱۰
يُبْصِرُ وَيُبْصِرُ وَيُؤَدُّ الْمَجْرِمُ لُوَيْقْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ يَذَّ بِبَنِيهِ ۝۱۱ وَصَحْبَتِهِ وَأَخِيهِ ۝۱۲ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي
تُؤَيِّبُهَا ۝۱۳ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ ۝۱۴ كَلَّا إِنَّهَا لَأَنْهَا لُظَىٰ ۝۱۵ نَزَّاعَةً لِّلشَّوْىِ ۝۱۶ تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ۝۱۷
وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ ۝۱۸﴾ * إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝۱۹ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۝۲۰ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ۝۲۱ إِلَّا
الْمُصَلِّينَ ۝۲۲ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ۝۲۳ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝۲۴ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ
۝۲۵ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ۝۲۶ وَالَّذِينَ هُمْ مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ ۝۲۷ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَا مُنِ
۝۲۸ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝۲۹ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ
۝۳۰ فَمَنْ أَبْغَىٰ وِرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝۳۱ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ۝۳۲ وَالَّذِينَ هُمْ
بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ ۝۳۳ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝۳۴ أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ ۝۳۵﴾ [المعارج: ۸ - ۳۵].

بعد أن بيّن الله أوصاف يوم القيامة، وأحواله الرهيبة في قوله: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ
۝۸ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ۝۹ وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا...﴾، انتقل إلى بيان طبع الإنسان، وطبائعه،
وخلقه المتقلب بين الخير والشر، وأصول أخلاقه الطبيعية من حيث اتصافه بالهلع الذي هو
شدة الحرص، وقلة الصبر، والمنع الذي يجمع أصول الأخلاق الذميمة، وقال سبحانه وتعالى:
﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝۱۹ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۝۲۰ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ فيقول جلّ وعلا مخبراً
عن الإنسان، وما هو مجبول عليه من الأخلاق الدنيئة.

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ ثم فسره بقوله: ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا﴾ الجزوع: هو الكثير الجزع^(١). أى: الخوف، والمنوع: هو الكثير المنع لنعم الله تعالى، وعدم إعطاء شيء منها للمحتاجين إليها.

أى إذا مسه الضر فرع، وجزع، وانخلع قلبه من شدة الرعب، وأيس أن يحصل له بعد ذلك خير ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ المراد بالخير: ما يشمل الغنى والصحة وغير ذلك مما يحبه الإنسان، وتميل إليه نفسه، وإذا حصلت له نعمة من الله بخل بها على غيره، ومنع حق الله تعالى فيها.

والمعنى إن الإنسان جبل على شدة الحرص، وقلة الصبر، فلا يصبر على بلاء، ولا يشكر على نعماء، وفسر ذلك بأنه إذا أصابه الفقر، أو المرض، أو نحو ذلك من الضّر، فهو كثير الجزع، أو الحزن والشكوى، وإذا أصابه الخير من الغنى والسعة، أو الصحة ونحو ذلك من النعم، فهو كثير المنع، والبخل على غيره (٢).

ولذلك لما سئل ابن عباس رضي الله عنهما عن الهلوع؟.. فقال: هو كما قال الله تعالى: ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا﴾ ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾. ولا يكون تفسيره أبين من تفسيره تعالى، وهو الإنسان الذي إذا ناله شرٌّ أظهر شدة الجزع، وإذا ناله خيرٌ بخل ومنع، وهذا طبعه، وهو مأمور بمخالفة طبعه، وموافقة شرعه (٣).

(١) الجزع: نقيض الصبر جزع بالكسر يجزع جزعاً فهو جازع، والجزوع ضد الصبور على الشر. ينظر: تهذيب اللغة (١)

/ ٢٢١)، ومقاييس اللغة (١ / ٤٠٣-٤٠٤)، جمهرة اللغة (١ / ٢٣٢)، ولسان العرب (٨ / ٤٧).

(٢) ينظر: تفسير القرطبي (١٨ / ٢٨٩)، وابن كثير (٤ / ٥٠٨)، وفتح القدير (٥ / ٤٠٩)

(٣) ينظر: تفسير الكشاف (٤ / ٦١٤)، وروح المعاني للألوسي (٢٩ / ٦١)، وفتح القدير (٥ / ٤١١)، وأضواء

البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٨ / ٢٦٨).

وَجُعِلَ الْهَلْعُ جَمْلَةً مَعْتَرِضَةً بَيْنَ ﴿تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى﴾ ١٧ وَجَمَعَ فَأَوْعَى ﴿، وَبَيْنَ الْاسْتِثْنَاءِ ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾. تَنْبِيْهُهَا عَلَى خِصْلَةِ تَخَامُرِ نَفُوسِ الْبَشَرِ، فَتَحْمَلُهُمْ عَلَى الْحِرْصِ الشَّدِيدِ؛ لِنَيْلِ النَّافِعِ، وَعَلَى الْاِحْتِفَازِ بِهِ خَشِيَّةَ نَفَاذِهِ لِمَا فِيهِمْ مِنْ حُلُقِ الْهَلْعِ (١).

وَكَانَ طَبْعُ الْإِنْسَانِ بَيْنَ الْأَخْلَاقِ السَّيِّئَةِ، وَبَيْنَ الْأَخْلَاقِ الْحَسَنَةِ؛ لِبَيَانِ أَسْأَلِ مَا فَطَرَ عَلَيْهِ الْإِنْسَانَ، وَمَا طَرَأَ عَلَيْهِ مِنْ سُوءِ تَصَرُّفِهِ فِي أَعْمَالِهِ؛ وَلِتَنْبِيْهِ عَلَى جِبَلَةِ الْإِنْسَانِ، وَأَنْهَا تَسْرِعَ إِلَى الْاِعْتِلَاقِ بِمَشَاعِرِهِ عِنْدَ تَصَرُّفَاتِهِ تَعْرِيفًا بِذَلِكَ لَوْجُوبِ الْحَذَرِ مِنَ الْوُقُوعِ فِي شَرِّ عَوَاقِبِ الْحِرْصِ الشَّدِيدِ، وَالْعَجَلَةِ، وَالضَّعْفِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧]. فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ مِنْ طَبْعِهِ الْعَجَلَةُ، وَعَدَمُ التَّأْنِي، وَقَدْ تَرَدَّدَ لِلْعَذْرِ وَالرَّفْقِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]. وَدَلَّ عَلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ مِنْ طَبْعِهِ الضَّعْفَ أَمَامَ الشَّهَوَاتِ، وَالشَّدَائِدِ، وَالْعَزَمَاتِ (٢).

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ: "كَانَ كَلَامُ السَّلَفِ فِي تَفْسِيرِ الْهَلْعِ يَتَضَمَّنُ هَذِهِ الْمَعَانِي، وَكُلُّهَا تَنْفِي الثَّبَاتِ وَالْقُوَّةِ وَالْاجْتِمَاعِ، وَالْإِمْسَاكَ وَالصَّبْرَ" (٣). وَقَالَ أَيْضًا: "وَنَفْسُ الْإِنْسَانِ خُلِقَتْ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ ١٩ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جُرُوعًا ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾" (٤).

(١) ينظر: التحرير والتنوير (٢٩ / ١٥٤).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير (٢٩ / ١٥٧)، وأضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٤ / ١٥٠).

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية (التفسير) (٥ / ٢٤٠).

(٤) ينظر: مجموع فتاوى ابن تيمية (التفسير) (٣ / ٩٥).

وهذا الوصف للإنسان من حيث هو وصف طبيعته الأصلية، أنه هلوع، وهو عام لجنس الإنسان، ويفيد الاستغراق بحسب ما دخلت عليه كما تقرر في الأصول (١)، فكل إنسان هذا وصفه إلا من استثنى الله بقوله: ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾، الموصوفين بتلك الأوصاف، فإنهم إذا مسهم الخير شكروا الله، وأنفقوا مما خولهم الله، وإذا مسهم الشر صبروا واحتسبوا (٢). والهلوع صفة غير محمودة، فوصف الإنسان هنا بما لوم عليه في تقصيره عن التخلق بدفع آثارها، ولذلك جاء بعد قوله تعالى: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾ (٣). وحديث أبي هريرة رضي الله عنه: «شَرَّ مَا فِي رَجُلٍ شَحَّ هَالِعٍ ، وَجِبْنٌ خَالِعٍ» (٤).

وأما ما يستشكله أصحاب الأفكار المنحرفة أن الإنسان خلق من العجل وجبل عليه، ثم ينهاه عما خلق منه وجبل عليه؛ لأنه تكليف بمحال، فلا إشكال فيه.

وقد ردّ على هذا الإشكال العلامة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في تفسيره، فقال: "لِأَنَّ نَقُولَ: نَعَمْ هُوَ جِبِلٌّ عَلَى الْعَجَلِ، وَلَكِنْ فِي اسْتِطَاعَتِهِ أَنْ يُلْزَمَ نَفْسَهُ بِالتَّائِبِ، كَمَا أَنَّ جِبِلَّ عَلَى حُبِّ الشَّهَوَاتِ مَعَ أَنَّهُ فِي اسْتِطَاعَتِهِ أَنْ يُلْزَمَ نَفْسَهُ بِالكَفِّ عَنْهَا" (٥).

(١) ينظر: القواعد الحسان في تفسير القرآن للسعدي (ص: ٦)

(٢) ينظر: تفسير السعدي (ص: ٨٨٧).

(٣) ينظر: التحرير والتنوير (٢٩ / ١٥٧).

(٤) تقدم تخريجه

(٥) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٤ / ١٥٢).

قال ابن عاشور: "والذي استخلصته من تتبع استعمالات كلمة الهلع أن الهلع قلة إمساك النفس عند اعتراء ما يحزنها، أو ما يسرها، أو عند توقع ذلك، والإشفاق منه، وأما الجزع فمن آثار الهلع،... والهلع طبيعة كامنة فيه مع خلقته تظهر عند ابتداء شعوره بالنافع والمضار فهو من طباعه المخلوقة كغيرها من طباعها البشرية"^(١).

ولما كان الهلع شدة الحرص وقلة الصبر عبر هُلُوعاً بصيغة مبالغة من الهلع، وهو إفراط النفس، وخروجها عن التوسط والاعتدال، عند ما ينزل بها ما يضرها، أو عند ما تنال ما يسرها، والمراد بالشر: ما يشمل الفقر والمرض وغيرهما مما يتأذى به الإنسان، والمراد بالخير: ما يشمل الغنى والصحة وغير ذلك مما يحبه الإنسان، وتميل إليه نفسه.

فدلّت الآيات على أصول الطبع في الإنسان التي جبل عليها، وهي ثلاثة: خلق هُلُوعاً، وعجولاً، وضعيفاً، كما بين الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾، وقال سبحانه: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾، وقال تعالى: ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾.

وأن الهلع شدة الحرص على فضول الدنيا، وقلة الصبر على المصائب، والمكارة من الأوصاف الرديئة والأخلاق المدمومة التي توقع في الغضب الذي هو منشأ سيئ الأخلاق، وتؤدي إلى الكذب وغيره من الأمور الرذيلة، والعجلة تورث الندامة، وعدم التأني والتثبت، والضعف لا يقوى أمام الشهوات، والشدائد، والعزمات.

(١) ينظر: التحرير والتنوير (٢٩ / ١٥٦).

المبحث الرابع

أخلاق مكتسبة.

تقدم بأن طبيعة الإنسان، وسجيته، وخلقه تتقلب بين الخير والشر، وأن الأصل في اكتساب الأخلاق، هو ملازمتها وتحريمها، وقصدها؛ لأن الله خلق الإنسان، وهو يحب ما يسره، ويهرب مما يكره، ثم أمره بإنفاق ما يحب، والصبر على ما يكره، وأعطاه الإرادة تجعله قادراً على الفعل، والكف، وهو يتخذ الأسباب، والقدر من جهة الله سبحانه وتعالى، وقال ابن عاشور: " بيان ذلك أن تركيب المدارك البشرية ركز بحكمة دقيقة تجعلها قادرة على الفعل والكف، وساعية إلى الملائم ومعرضة عن المنافر" (١).

ومما يدلّ على اكتساب الأخلاق، وملازمتها، وقصدها قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٦﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ﴿٩﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى ﴿١٠﴾﴾ [الليل ٥- ١٠]. أي نهيته للحالة التي هي أيسر عليه وأهون، وذلك في الدنيا والآخرة، وقابل أعطى ببخل، واتقى باستغنى؛ لأنه زهد فيما عند الله، ونهيته للحالة السيئة في الدنيا والآخرة.

والمعنى: أن من أعطى واتقى.. فيسهل الله عليه أمره، ويجعله ميسراً له كل خير، ميسراً له، وترك كل شر؛ لأنه أتى بأسباب التيسير، فيسر له ذلك، وأما من بخل واستغنى... فيسهل للحالة العسرة، والحصل الذميمة، بأن يكون ميسراً للشر أينما كان، ومقيضاً له أفعال المعاصي؛ لأنه ترك الإنفاق الواجب والمستحب، ولم تسمح نفسه بأداء ما وجب لله، واستغنى عن الله، فترك عبوديته جانباً، ولم ير نفسه مفتقرة غاية الافتقار إلى ربها (٢).

(١) التحرير والتنوير (٢٩ / ١٥٧).

(٢) ينظر: تفسير الطبري (٢٤ / ٤٧١)، والبحر المحييط لأبي حيان (٨ / ٣٦٣)، وتفسير السعدي (ص: ٩٢٦).

وفي هذه الآيات بيان بأن أخلاق الناس المكتسبة، وأحوالهم منقسمة إلى قسمين: محمود، ومذموم، وكذلك دلت الأحاديث الصحيحة على الأخلاق المكتسبة، وملازمتها وتحريمها، وقصدها.

من ذلك حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي جَنَازَةٍ فَأَخَذَ شَيْئًا فَجَعَلَ يَنْكُتُ بِهِ الْأَرْضَ فَقَالَ مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ وَمَقْعَدُهُ مِنَ الْجَنَّةِ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلَا نَتَّكِلُ عَلَى كِتَابِنَا وَنَدْعُ الْعَمَلَ قَالَ اْعْمَلُوا فَكُلُّ مُيَسَّرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ أَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ ثُمَّ قَرَأَ ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٦﴾﴾ الآية» (١).

في هذا الحديث النهي عن ترك العمل، والاتكال على ما سبق به القدر بل تجب الأعمال والتكاليف التي ورد الشرع بها، وكل ميسر لما خلق له لا يقدر على غيره، ومن كان من أهل السعادة يسره الله لعمل السعادة، ومن كان من أهل الشقاوة يسره الله لعمل الشقاوة، فكل ميسر يريد أنه ميسر في أيام حياته للعمل الذي سبق له القدر به قبل وجوده وكونه وأمر بالعمل الذي هو أمانة له ليكون راجيًا خائفًا (٢).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه - باب ﴿فَسُنِّيئُهُ لِلْعُسْرَى﴾ (١٢ / ٣٣٩)، (٤٩٤٩)، ومسلم - باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته (٤ / ٢٠٣٩)، (٢٦٤٧) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٢) ينظر: الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد - البيهقي (ص: ١٣٧)، وشرح النووي على مسلم (١٦ / ١٩٦).

وحديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- «إِنَّ الصِّدْقَ بُرٌّ وَإِنَّ الْبُرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدِّيقًا وَإِنَّ الْكَذِبَ فُجُورٌ وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ كَذَابًا»^(١). أي يلزم الصدق، ويتحرّاه، ويتجنب الكذب ويتعد عنه.

قال القرطبي: "حق من فهم عن الله وعقل عنه أن يلزم الصدق في الأقوال، والإخلاص في الأعمال، والصفاء في الأحوال"^(٢).

في هذا الحديث حث على تحري الصدق، وقصده، والاعتناء به، وعلى التحذير من الكذب، والتساهل فيه؛ فإنه إذا تساهل فيه كثر منه، فعرف به، وكتبه الله لمبالغته صديقًا إن اعتاده، أو كذابًا إن اعتاده.

ومعنى يكتب هنا يحكم له بذلك، ويستحق الوصف بمنزلة الصديقين وثوابهم، أو صفة الكذابين، وعقابهم، والمراد إظهار ذلك للمخلوقين إما بأن يكتبه في ذلك ليشتهر بحظه من الصفتين في الملاء الأعلى، وإما بأن يلقي ذلك في قلوب الناس، وألسنتهم كما يوضع له القبول، والبغضاء وإلا فقدّر الله تعالى^(٣).

وعلم الله بالسعداء والأشقياء لا يعني ترك العمل، فأهل الخير يُيسرون لعمل يكونون به سعداء، وأهل الشر يخذلهم ويصرفهم فيعملون بعمل أهل الشر، وأهل الشقاوة، ولكن مع ذلك كله فإنهم مأمورون، ومنهيون، ومكلفون بأن يمتثلوا هذا الفعل، وبأن يتركوا هذا الفعل، ويعتبرون إذا فعلوا ذلك مطيعين، وإذا لم يفعلوه يعتبرون عصاة.

وتعديل السلوك، وترقية الطباع أمر متحمل، ويمكن ترويض هذه الأخلاق، وعلاجها بالحكمة والمجاهدة، وفي ضوء تقدير المخاطر، ومن أجل النجاة من المخاوف التي تحيط بالإنسان في

(١) أخرجه مسلم في صحيحه - باب فُبحِ الكُذِبِ وَحُسْنِ الصِّدْقِ وَفَضْلِهِ صحيح مسلم - (٨ / ٢٩)، (٦٨٠٤).

(٢) تفسير القرطبي (٨ / ٢٨٩).

(٣) ينظر: شرح النووي على مسلم (١٦ / ١٦٠)، وفتح الباري - تعليق ابن باز (١٠ / ٥٠٨).

آخرته، والقرآن الكريم نبه إلى طرق العلاج لطبيعة الإنسان بأسلوب معقول، وواضح، كما يتبين من هذه الآيات والأحاديث.

وقال ابن عاشور: "وجُعِلت في طبيعة الإنسان قوى متضادة الآثار يتصرف العقل والإدراك في استخدامها كما يجب في حدود المقدرة البدنية التي أعطيها النوع، والتي أعطيها أفراد النوع، كل ذلك؛ ليصلح الإنسان لإعمار هذا العالم الأرضي الذي جعله الله خليفة فيه ليصلحه إصلاحًا يشملُه ويشمل من معه في هذا العالم إعدادًا لصلاحيته لإعمار عالم الخلود، ثم جعل له إدراكًا يميز الفرق بين آثار الموجودات وآثار أفعالها بين النافع منها والضار والذي لا نفع فيه ولا ضرر.

وخلق فيه إلهامًا يحب النافع ويكره الضار، غير أن اختلاط الوصفين في بعض الأفعال، وبعض الذوات قد يريه الحال النافع منها، ولا يريه الحال الضار، فيبتغي ما يظنه نافعًا غير شاعر بما في مطاويه من أضرار في العاجل والآجل، أو شاعرًا بذلك ولكن شغفه بحصول النفع العاجل يرجح عنده تناوله الآن لعدم صبره على تركه مقدرًا معاذير، أو حيلًا يقتحم بها ما فيه من ضرر آجل.

وإن اختلاط القوى الباطنية مع حركات التفكير قد تستر عنه ضرر الضار، ونفع النافع فلا يهتدي إلى ما ينبغي سلوكه أو تجنبه، وقد لا تستر عنه ذلك، ولكنها تحدث فيه إثارة لاتباع الضار لملائمة فيه، ولو في وقت، أو عند عارض، إعراضًا عن اتباع النافع لكلفة في فعله، أو منافرة لوجدانه، وذلك من اشتغال تركيب قواه الباعثة والصارفة وآلاتها التي بها تعمل وتدفع على شيء من التعاكس في أعمالها.

غير أن الله جعل للإنسان عقلاً وحكمة إن هو أحسن استعمالها نخلت صفاته، وثقفت من قناته، ولم يخله من دعاة إلى الخير يصفون له كيف يريض جامع نفسه، وكيف يوفق بين إدراكه وحسه، وهؤلاء هم الرسل والأنبياء والحكماء^(١).

(١) التحرير والتنوير (٢٩ / ١٥٧).

المبحث الرابع

أخلاق مذمومة

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ۝۸ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ۝۹ وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ۝۱۰ يُبْصِرُونَ نَهْمَ يَوْمٍ لَّوْ يَفْقَدِي مِنَ عَذَابٍ يَوْمِيذٍ بِبَنِيهِ ۝۱۱ وَصَحْبَتِهِ وَأَخِيهِ ۝۱۲ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُقْوِيهِ ۝۱۳ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ ۝۱۴ كَلَّا إِنَّهَا لَأَطْلَىٰ ۝۱۵ نَزَّاعَةً لِّلشَّوْىِ ۝۱۶ تَدْعُو مَنْ أَذْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ۝۱۷ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ﴾ [١٨-٨].

تقدم بأن طبع الإنسان بين الأخلاق السيئة وبين الأخلاق الحسنة؛ وذلك لبيان أصل ما فطر عليه، وما طرأ عليه من سوء تصرفه في أفعاله، وهو مفطور ومطبوع، على أنه إذا أصابه الشر جزع، وإذا مسه الخير بخل، وأن هاتين الصفتين من الصفات المذمومة؛ للحذر منهما، والابتعاد عن كل الأخلاق المذمومة، وغير اللائقة بالمرءة الإنسانية.

وطابع السور المكية غالباً تتحدث عن أصول العقيدة الصحيحة، وإرساء أصول الأخلاق الفاضلة، والتحلي بها، وبيان الأخلاق الرذيلة؛ للحذر منها، والابتعاد عنها. والمتأمل في هذه السورة يجد أن محورها الذي يقوم عليه نظامها هو إثبات البعث، والجزاء، ووصف يوم القيامة وأهواله، وأحوال المجرمين في ذلك اليوم الرهيب، وأسباب استحقاق العذاب، وأصول الأخلاق وأقسامها.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَأَطْلَىٰ ۝۱۵ نَزَّاعَةً لِّلشَّوْىِ ۝۱۶﴾ كلاً للزجر والردع ليس ينجيه من عذاب الله الافتداء، وإن له جهنم تنلظى نيرانها وتنزع جلدة الرأس، واللحم عن العظم في الأطراف، والجسد، وتطلب إليها كل من أدبر في الدنيا عن طاعة الله، وتولى عن الإيمان، وجمع المال، فجعله في وعائه، ومنع منه حق الله تعالى، فكان جموعاً منوعاً (١).

(١) ينظر: تفسير القرطبي (١٨ / ٢٨٩).

وقوله تعالى: ﴿تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى ۖ وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾ تجمع هاتان الآيتان أسباب استحقاق العذاب، والإعراض عن الحق، وبيان أصول الأخلاق الذميمة، وجمع فأوعى صفتان من الأخلاق الدنيئة، وهي جمع المال في وعاء، وكنزه حرصاً، وطمعاً، وطول أمل، ومنع حق الله منه، والحقوق الواجبة فيه، والتشاغل به عن الدين.

وقوله: ﴿تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى ۖ وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾ أي تدعو لظي من أدبر في الدنيا عن الحق، وتولى عن الإيمان، وجمع المال، وكنزه؛ ولم يؤدّ الزكاة، والحقوق الواجبة فيه، فيما أوجب الله عليه إنفاقه، وإعراضاً عن الآخرة، وزهي بإقتنائه، وتكبر، فكان همه الإيعاء، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا ينفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤].

وفي قوله: جمع إشارة إلى الحرص والطمع، وفي قوله: فأوعى إشارة إلى البخل، وطول الأمل، وعن قتادة جمع فأوعى كان جموعاً للخبيث (١). ويدل عليه السياق، أي وزاد على إدباره وتوليه أنه جمع الخبائث.

كما جاء في الحديث: «مَنْ كَانَ هُمُّهُ الْآخِرَةَ، جَمَعَ اللَّهُ شَمْلَهُ، وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَأَنْتَهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتْ نِيَّتُهُ الدُّنْيَا، فَرَّقَ اللَّهُ عَلَيْهِ ضَيْعَتَهُ، وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ» (٢).

(١) ينظر: تفسير الطبري (٢٣ / ٦١٠)، والكشاف (٤ / ٦١٤)، ونظم الدرر للبقاعي (٨ / ١٥٠)، والتحرير والتنوير (٢٩ / ١٦٦).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٥ / ٤٦٧)، (٢١٥٩٠)، ومسند الصحابة في الكتب الستة (٣٧ / ١٧٢). قال الشيخ شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه.

فالمعنى جمع المال وجعله في وعاء، وهو قوله: ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۖ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾^(١) والهلوع شدة الحرص، وقلة الصبر، والشح على المال والرغبة فيما لا ينبغي، والذي جبل عليه الإنسان، وهو فيها بليغ الهلع، وذكره الله على وجه الذم لهذه الخلائق^(٢).
فناسب الحديث عن طبيعة الإنسان وصفاته التي أوجبت له النار، ومدارها الجزع عند الشدة، والبطر عند النعمة، والبخل، والشح عند الحاجة، والأزمة، وعلاج الفقر، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۖ (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۖ (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾^(٣) مخبراً عن الإنسان وما هو مجبول عليه من الأخلاق الدنيئة^(٤).
وأصول الأخلاق الذميمة يجمع بالإنسان طبعه وميله إلى الشر، بسبب أوصاف الهلع، والجزع، والمنع التي تؤدي به إلى السوء.

وفي الحديث الشريف، يقول صلى الله عليه وسلم: « شر ما في الرجل شح هالع، وجبن خالع»^(٥) أي يجزع فيه العبد ويجزن^(٤).

وقوله تعالى: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾ أي جمع المال فجعله في وعائه ومنع منه حق الله تعالى، فكان جموعاً منوعاً؛ كما في الحديث: « أَنْفِقِي وَلَا تُحْصِي فَإُحْصِيَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَلَا تُوعِي فَيُوعِيَ اللَّهُ عَلَيْكَ»^(٥). أي لا تجمع مالك في الوعاء على سبيل الكنز، فيمنع الله فضله عنك، كما منعت

(١) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي (٣ / ٢٢٤)، ونظم الدرر للبقاعي (٨ / ١٥٠).

(٢) ينظر: تفسير القرطبي (١٨ / ٢٨٩)، وابن كثير (٤ / ٥٠٨)، وفتح القدير (٥ / ٤٠٩).

(٣) تقدم تخريجه في (ص).

(٤) ينظر: مادة (هلع) الصحاح للجوهري (٤ / ٤٤٣)، النهاية في غريب الأثر (٥ / ٦٢٧)، ولسان العرب (٨ / ٣٧٤).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه- باب هبة المرأة لغير زوجها وعنتها إذا كان لها زوج فهو جائز إذا لم تكن سفيهة فإذا كانت سفيهة لم يجز (٦ / ٤٧٣)، (٢٥٩١)، ومسلم في صحيحه باب الحث في الإنفاق وكراهة الإحصاء- (٣ / ٩٢)، (٢٤٢٣) من حديث أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما.

وقترت، وفي الحديث الحث على النفقة في الطاعة، والنهي عن الإمساك والبخل، وعن ادخار المال في الوعاء، فيدلّ ترتيب الثاني على الأول.

إنّ الإنسانَ سواء كان مؤمناً أو كافراً بطبعه لشديد المحبة للمال، وإنه لحريص، وبخيل بالمال، وحب المال من طبع البشر، إلا إذا كان حباً كثيراً شديداً، مع الحرص ومنع الحقوق، ويؤدى إلى الطغيان، والتعاضم والكبر؛ فإنه حينئذ من الأخلاق الذميمة، وغير اللائقة بالإنسانية، كما قال تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ٢٠]، وقال جل وعلا: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ [٦] وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ [العاديات: ٦ - ٨]، وقال سبحانه: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَإِطْغَىٰ ﴿٦﴾ أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْنَىٰ ﴿٧﴾﴾ [العلق: ٦ - ٧]. أي من طبع الإنسان أن يطغى إذا رأى في نفسه، أو أحس من نفسه الاستغناء، ويتجاوز حدّه؛ وعلّة هذا الخلق الاستغناء؛ لأنه يعمى عن مواضع افتقاره، وقد بينت هذه الآية حقيقة نفسية عظيمة من الأخلاق.

وتحبون جمع المال أيها الناس واقتناءه حباً كثيراً شديداً حلاله وحرامه، والجَم الكثير، وبين الله حقيقة فتنة المال إيجاباً وسلباً جمعاً وبدلاً (١).

فتبين من خلال الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية: أن الهلع، والجزع، والبخل، والعجل، والضعف كلها صفات مذمومة من طبع الإنسان، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾، وقال جلّ وعلا: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَنُورًا ﴿١٠٠﴾﴾ [الإسراء: ١٠٠]، أي

(١) ينظر: تفسير الطبري (٢٤ / ٤١٥، ٥٦٧)، والقرطبي (٢٠ / ٥٤)، وابن كثير (٤ / ٦١٩)، والبحر المديد (٨ / ٤٦٢)، ولطائف الإشارات (٣ / ٧٤٨)، والتحرير والتنوير (٣٠ / ٣٩٢)، وأضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٨ / ٥٢٦)، والتفسير الوسيط للزحيلي (٣ / ٢٩١٨).

بخيلاً مضيقاً، والقصور: الشديد البخل، مشتق من القتر، وهو التضيق في الإنفاق، وهو صيغة مبالغة في البخل (١).

فثبت أن الأصل في الإنسان الحرص الشديد على المال، والبخل؛ لأنه خلق محتاجاً والمحتاج لا بد أن يحب ما به يدفع الحاجة وأن يمسكه لنفسه، إلا أنه قد يوجد به لأسباب من خارج، فيبذل لطلب الثناء والحمد، وللخروج عن عهدة الواجب فهو في الحقيقة ما أنفق إلا ليأخذ العوض، فهو بخيل.

وقد تقدم بأن الإنسان خلق عجولاً، كما قال تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾، وقال السعدي: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾. أي خلق عجولاً يبادر الأشياء، ويستعجل بوقوعها، فالمؤمنون، يستعجلون عقوبة الله للكافرين، ويتباطئونها، والكافرون يتولون، ويستعجلون بالعذاب، تكديماً وعناداً، ويقولون: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢).

وقال سبحانه: ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١]. أي خلق الإنسان من عجل في خلقه أي على عجل وسرعة في ذلك، وعجل مبالغة في وصفه، جعل لفرط استعجاله؛ لأن سياق الآيات، والغرض في الذم؛ لدلالة قوله تعالى: ﴿سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ علي ذلك، أي خلق عجولاً وذلك على المبالغة، ومن شأنه العجلة، وخلق ضعيفاً، كقوله جلّ وعلا: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾، أي الإنسان في أصله، هو ضعيف؛ لأنه خلق من أصل ضعف،

(١) ينظر: تفسير القرطبي (١٠ / ٣٣٥)، ومفتاح الغيب (٢١ / ٥٣)، وابن كثير (٣ / ٨٣)، والتحرير والتنوير (١٤ / ١٧٦)، وأضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٣ / ١٨٧).

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص: ٥٢٣).

وهو النطفة، كما سبحانه: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ

جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ [٥٤: الروم]. أي ضعفاء^(١).

(١) ينظر: ينظر: تفسير الطبري (٤٤٣/١٨)، والمحرم الوجيز (٩٩/٤)، ومفاتيح الغيب (١٤٨ / ٢٢)، وتفسير القرطبي (٢٨٨/١١)، وابن كثير (٢٦٧/٢)، وروح المعاني (٥٨/٢١)، والتفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج (١٧ / ٤٩).

المبحث الخامس

أخلاق محمودة

قوله تعالى: ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِلنَّسَائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ هُمْ مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَا مُؤْمِنُونَ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَرْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾﴾

تقدّم بأن الناس جميعًا قد جبلوا على الجزع عند الضراء، وعلى المنع عند السراء، لكن الله استثنى أصحاب الأخلاق الحمودة، الذين هم المصلون المتصفون بمكارم الأخلاق من التلبس بالصفات الدنيئة، وأن من صفات المؤمن الصادق أن يكون صبورًا عند الضراء، وشكورًا عند الرخاء، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ» (١).

في هذا الحديث: فضّل الشكر على السراء، والصبر على الضراء، ويجمع للإنسان أطراف كل الخير، ويبعده عن كل الشر، فمن فعل ذلك حصل له خير الدارين، ومن لم يفعل فاته الأجر، وحصل له الوزر.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه - باب المؤمن أمره كله خير - (٨ / ٢٢٧)، (٧٦٩٢) من حديث صهيب بن سنان رضي

الله عنه.

والوصف بمكارم الأخلاق والتحلّي بها يكون بالأعمال الصالحة، والبعد عن الأعمال السيئة؛ وكلما اتصف الشخص بصفات حميدة لعلاج أمراض النفس البشرية، وهو بذلك يكون قدوة للإنسانية ومثلاً أعلى يحتذى به.

ولذلك استثنى الله من أصحاب الأخلاق المذمومة أصحاب الأخلاق المحمودة الذين هم المصلون يتحلّون بمكارم الأخلاق؛ لأنّ صلاتهم تنهاهم عن المنكر، والفحشاء؛ وتصونهم من أمراض البخل، والتقتير، وتحملهم على قلة الاكترات بالدنيا فلا يجزعون من شرها، ولا يبخلون بخيرها، الذين هم على صلاتهم دائمون، الدوام عليها هو المواظبة مواظبة تامة بطول العمر، وأدائها في أوقاتها، دون أن يشغلهم عن أدائها عسر، أو يسر، والذين في أموالهم حق معلوم، يعني الزكاة؛ لأنّها مقدّرة معلومة يؤديها في أوقات معلومة، أو صدقة تطوع، فيؤدون حقوق الله، وحقوق العباد معاً فيستحقون الخلود في الجنان^(١).

قد أوصل الله لهم من الكرامة والنعيم المقيم ما تشتهيهِ النفس، وتلذ الأعين، وهم فيها خالدون. وحاصل هذا، أن الله وصف أهل السعادة والخير بهذه الأوصاف الكاملة، والأخلاق الفاضلة، من العبادات البدنية، كالصلاة، والمداومة عليها، وتكرير ذكر الصلاة ووصفهم بهم أولاً وآخرًا للدلالة على فضلها.

والأعمال القلبية، كخشية الله الداعية لكل خير، والعبادات المالية، والعقائد النافعة، والأخلاق الفاضلة، ومعاملة الله، ومعاملة خلقه، أحسن معاملة من إنصافهم، وحفظ عهودهم وأسرارهم، والعفة التامة بحفظ الفروج عما يكره الله تعالى.

(١) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي (٣ / ٢٢٤)، وأضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٨ / ٢٦٨)،
والتحرير والتنوير (٢٩ / ١٥٤).

قائمة المصادر والمراجع

- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن لمحمد الأمين الشنقيطي، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - لبنان، الطبعة: ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.
- الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد على مذهب السلف وأصحاب الحديث للبيهقي، ت: أحمد عصام الكاتب، الناشر: دار الآفاق الجديدة - بيروت، الطبعة الأولى: ١٤٠١هـ.
- البحر المديد للإدريسي الشاذلي الفاسي، دار النشر/ دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الثانية / ٢٠٠٢ م - ١٤٢٣ هـ.
- التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور، الناشر: مؤسسة التاريخ العربي، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.
- التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي، الناشر: مكتبة مشكاة الإسلامية.
- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج لوهبة بن مصطفى الزحيلي، الناشر: دار الفكر المعاصر، بيروت دمشق، سنة: ١٤١٨هـ.
- تهذيب الأسماء واللغات للإمام النووي، ت: مكتب البحوث والدراسات، دار النشر دار الفكر، سنة النشر ١٩٩٦، الطبعة الأولى.
- تهذيب اللغة للأزهري، دار النشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت - ٢٠٠١م، الطبعة: الأولى، ت: محمد عوض مرعب.
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي، ت: عبد الرحمن بن معلا اللويح، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.
- التفسير الوسيط دوهبة بن مصطفى الزحيلي، الناشر: دار الفكر - دمشق، الطبعة: الأولى - ١٤٢٢هـ.
- تفسير البحر المحيط للعلامة أبي حيان الأندلسي، الناشر: دار الفكر.

- تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ت: محمود حسن، الناشر: دار الفكر، الطبعة الجديدة: ١٤١٤هـ-١٩٩٤م.
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري، ت: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى: ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.
- الجامع الصحيح للبخاري، حسب ترقيم فتح الباري، الناشر: دار الشعب- القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ت: أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ-١٩٦٤م.
- جمهرة اللغة لابن دريد، مصدر الكتاب: موقع الوراق <http://www.alwarraq.com>
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لمحمود الألوسي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.
- سنن أبي داود لأبي داود السجستاني الأزدي، ت: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: دار الفكر.
- سنن الترمذي لأبي عيسى الترمذي، ت: بشار عواد معروف، الناشر: دار الغرب الإسلامي - بيروت، سنة النشر: ١٩٩٨ م.
- سنن ابن ماجة لأبي عبدالله القزويني، ت وتعليق: محمد فؤاد عبدالباقي، الأحاديث المذيلة بأحكام الألباني عليها، الناشر: دار الفكر - بيروت.
- سنن النسائي الكبرى لأبي عبدالرحمن النسائي، ت: د. عبدالغفور سليمان البندراوي، سيد كسروي حسن، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى ١٤١١هـ-١٩٩١م.
- الصحاح؛ تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري، ت: أحمد عبدالغفور عطار، الناشر: دار العلم للملايين بيروت، الطبعة: الرابعة - يناير ١٩٩٠م.

- صحيح مسلم لمسلم بن الحجاج النيسابوري، ت وتعليق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- فتح الباري لابن حجر العسقلاني، ت: محب الدين الخطيب، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه وذكر أطرافها: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار الفكر (مصور عن الطبعة السلفية).
- القواعد الحسان في تفسير القرآن لعبد الرحمن بن ناصر السعدي، المصدر: موقع مكتبة مشكاة الإسلامية.
- القاموس المحيط لمحمد بن يعقوب الفيروز آبادي، الناشر: دار الملايين - بيروت.
- كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي، الناشر: دار ومكتبة الهلال، ت: د. مهدي المخزومي ود. إبراهيم السامرائي.
- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للزمخشري الخوارزمي، ت: عبدالرزاق المهدي، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- لسان العرب، لابن منظور الأفرريقي، الناشر: دار الصادر - بيروت - الطبعة الأولى.
- لطائف الإشارات لعبد الكريم بن هوازن القشيري، ت: إبراهيم بسيوني، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكان الطبع: مصر.
- مجموع فتاوى ابن تيمية، ت: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية - ١٤١٦ هـ / ١٩٩٥ م.
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية الأندلسي، ت: عبدالسلام عبدالشافي محمد، الناشر: دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة الأولى: ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م.
- مسند الإمام أحمد، ت: شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.
- مسند الصحابة في الكتب الستة.

- موسوعة الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور. د. حكمت بن بشير بن ياسين، الناشر: دار المآثر للنشر والتوزيع والطباعة، المدينة النبوية، الطبعة: الأولى ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م.
- معجم الفروق اللغوية للعسكري.
- معجم مقاييس اللغة لابن فارس بن زكريا، ت: عبدالسلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، الطبعة ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م.
- مفاتيح الغيب، تفسير الرازي: لفخر الدين الرازي الشافعي، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م.
- المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني، ت: وضبط محمد سيد كيلاني، دار المعرفة بيروت - لبنان.
- المنهاج شرح صحيح مسلم للنووي، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الثانية ، ١٣٩٢ هـ
- النهاية في غريب الحديث والأثر لأبي السعادات الجزري، ت: طاهر أحمد الزاوي - محمود محمد الطناحي الناشر: المكتبة العلمية - بيروت، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م.
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي، ت: عبدالرزاق غالب المهدي، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م.